

قضايا ديداكتيكية

في كتاب تجليات الصورة لسعيد بنكراد

الحسين أوعسري

يأتي الإقرار، مرة أخرى، بوجود هوة بين سلكي التعليم الثانوي التأهيلي والتعليم العالي⁽¹⁾ من لدن باحث أكاديمي رصين، خبر مجال تحليل الخطاب بصريا كان أو لفظيا. يتعلق الأمر بالسيميائي المغربي سعيد بنكراد الذي استدعي منذ سنوات مضت إلى إحدى مديريات التعليم بالدار البيضاء من لدن جماعة من الأساتذة لمناقشة قضايا الصورة التي يشكل التمرن على تحليلها إحدى مهارات مكون التعبير والإنشاء في مادة اللغة العربية. تفاجأ الكاتب بالعدد الغفير من الحاضرين الذين حجوا طواعية للقائه، وتفاجأ أكثر بما أثاروه من إشكالات الصورة، وطرائق تحليلها؛ فكان من نتائج ذلك تأليف كتاب (تجليات الصورة: سميات الأنساق البصرية)⁽²⁾ الذي تضمن قضايا ديداكتيكية؛ تتمثل في رصد جملة من الملاحظات تخص الصور المرفقة بالنصوص في الكتاب المدرسي، وتقديم مقترحات عملية عبارة عن دعابات ديداكتيكية، تعين المدرسين على تدريس الصورة للمتعلمين على نحو أمثل.

قد يبدو من المتجاوز أن يقف الباحث في هذا الكتاب، الذي يتضمن ثمانية فصول، عند مفهوم الصورة الذي خصص له الفصل الأول، مستجليا منطلقاتها النظرية وأسسها،

وتطورها عبر العصور، مستعينا في ذلك بجدها اللغوي والاصطلاحي، لاسيما وأن لديه العديد من المؤلفات التي أصدرها قبل هذا الكتاب، خصها لمفهوم الصورة تنظيرا وإنجازا وترجمة(3). لكن الباعث على هذا كون الكتاب موجها في المقام الأول للمدرسين، مما جعله ينقل المفاهيم من حضنها العلمي الأكاديمي إلى معرفة مدرسية يمكن أن يتفاعل معها المتعلمون، وفق ما يقتضيه النقل الديداكتيكي الذي يعني "مجموعة من التغييرات التي ترافق المعرفة حينما نريد تدريسها"(4). فما يحتاجه المدرسون في تدريس مهارة تحليل الصورة هو التقنيات والأدوات والمستويات والقدرة على التحليل، وليس الكم الهائل من المعارف النظرية التي كُتبت حول الصورة. بعبارة أخرى، يحتاج مدرسو السلك الثانوي التأهيلي والإعدادي في تحقيق الكفايات المطلوبة درسا وليس دراسة. لذلك نحا المؤلف، وهو واع بهذا الأمر، منحى تبسيطيا في تعامله مع المفاهيم المتعلقة بالصورة ونظرياتها.

تلك أولى القضايا الديداكتيكية في هذا الكتاب، التي أجملها الكاتب في مستويين متعلقين، هما: المستوي الأيقوني المرتبط بالواقع/المرجع الذي تحيل عليه الصورة، والمستوى التشكيلي المتعلق بالعناصر التي تشكل كنه الصورة وموضوعها. ولعل هذا ما قاده إلى الوقوف عند عدد كبير من المفاهيم المرتبطة بالمستويين السالفين؛ تحدث عن اللقطة وأنواعها، وعن النظرة ودلالاتها، وعن الإطار مبرز الفرق بينه وبين المجال، وعن الوضعة (la pose) بمختلف أشكالها، وعن التركيب ووظائفه؛ مقدما نماذج عن هذه المفاهيم عبارة عن صورة، حللها استنادا إلى ما بسطه وشرحه، مزوجا في ذلك كله بين التنظير والإنجاز. ولكي تتضح دلالات المفاهيم التي استند إليها، واعتبرها محورية في تحليل أي صورة، انتقى صورا دالة وبسيطة في الوقت نفسه، تبرز دلالة المفاهيم وتوضحها بشكل دقيق. وللإحاطة أكثر بعوالم الصورة، لم يغفل الأشكال الهندسية ورمزيتها، من خلال حديثه عن

المربع والمستطيل والدائرة والمثلث، نظرا لما يحظى به الشكل الهندسي من حضور قوي في الكتب المدرسية لأهميته القصوى في تمثيل القيم والأفكار والتصورات والمساعدة على استيعابها.

لقد أبرز أن الأشكال الهندسية ليست مجرد خطوط في الفضاء، بقدر ما هي تمثيل بصري لموضوع، منها ما هو مناسب للصورة ومنها ما هو منبوذ؛ فالشكل الهندسي الأكثر تداولاً في مجال التصوير، بصرف النظر عن طبيعة الصورة ونوعها، هو المستطيل، "إنه الشكل المفضل عند التشكيليين والنحاتين وصانعي الملصقات"⁽⁵⁾، خلافاً لأشكال أخرى تعد مرفوضة في هذا الباب مثل المثلث الذي "لا يمكن أن يكون وعاء للوحة، وغالبا ما تتجنبه الوصلة الإشهارية، إلا في حالات خاصة، وذلك لإيحاءاته المنطقية القوية، من حيث التركيب أولاً، فهو موزع على زوايا بالغة الحدة، وثانياً لأنه لا يتلاءم مع طبيعة اللوحات الإعلانية التي في الغالب مستطيلة أو مربعة"⁽⁶⁾.

إن الوقوف عند الأشكال الهندسية مهم وضروري، بحكم أنها تدرس في مواد أخرى (الرياضيات مثلاً)، ويمكن أن يستدعي المتعلم معارفه في هذا الإطار، ويوظفها في تحليل الصورة، ولا أحد ينكر أهمية الأشكال الهندسية في بناء التعلّمات لاسيما في المراحل الأولى من الدراسة عندما تغدو أداة التمثيل الأولى، وفي ذلك إشارة ضمنية إلى أن حقل الصورة يستفيد من عدة علوم لاسيما تلك المتعلقة بالأشكال الهندسية التي شكلت مدرسة فنية قائمة بذاتها عند التكعيبيين.

ومن جملة ما أعاره المؤلف اهتماما بالغا في مؤلفه الألوان. فلا أحد ينكر الدور الذي تضطلع به الألوان في إعانة المتعلمين على الفهم السليم، والإدراك العميق للظواهر وتمثلها تمثلاً دقيقاً. لذلك استرعت دلالات الألوان وإيحاءاتها التي تختلف باختلاف السياق الذي

توظف فيه اهتمامه، توقف عند وظيفتها، كاشفا عن علاقتها بالقيم والمعتقدات والتصورات، مشددا على أن اللون لا يكتسي دلالة خارج النسق الثقافي الذي عده إحدى النوافذ الأساسية التي تقود إلى اسكناه معاني الصورة.

هذه الاعتبارات هي التي جعلته يعنون ثلاثة فصول (الفصل الرابع والخامس والسادس) من الكتاب بعنوان واحد: كيف تنتج الصورة معانها؟ هذا سؤال ديداكتيكي دقيق، تطلبت الإجابة عنه نوعا من التدرج؛ حيث انتقل من دوال التشكيل في التمثيل البصري بشكل عام مركزا على الرسم الذي يتشكل من أشكال وخطوط إلى دوال التشكيل في الصورة التي تستعين بمكونات أخرى لا ترد في الرسم.

أما ثاني القضايا الديداكتيكية في الكتاب، فتتمثل في إبداء ملاحظات حول مجموعة من الرسوم⁽⁷⁾ في الكتاب المدرسي المغربي؛ رسوم انتقاها من كتب لمستويات مختلفة (الابتدائي والإعدادي)، حللها وأبرز ما اعتراها من فجوات ومزالق تكشف عن هوة بين موضوعها وموضوع النصوص أو المجزوءات التي ترفق بها، يقول: "رغم أن أغلبية الكتب المدرسية تستعين بالرسم من أجل التوضيح، فإنها لا تستعمل الرسم استنادا إلى هذه الخاصيات إلا في النادر، فهي لا تلتزم بهذه المقتضيات التي يمكن أن تقود إلى بناء عملية تعليمية تساعد الطفل على التفكير، بل تقدم له أحكاما جاهزة، كما في النصوص"⁽⁸⁾.

قاده تحليل الصور إلى الكشف عما يعوزها في تبليغ مقاصدها، وفي طليعة ما يعوزها العبارات اللغوية التي ترفق بها، فهي إما أبيات شعرية رديئة لا تنفي بالغرض، وإما أنها ترفق بنصوص يوجد بون شاسع بين مضامينها وشكل الصورة. وفي هذا الصدد أوضح أن العملية التعليمية - التعليمية "لا تقوم على النيات، بل على منهج تربوي دقيق يسرب المعرفة في جرعات تراعي اللحظة والسن والمقام"⁽⁹⁾، ولا تقوم كذلك على الحث والمنع

والترهيب والترغيب، وهي كل معان تحيل عليها العديد من الرسوم، فالأصل أن تساعد الطفل على اكتشاف عالمه لا أن نخاطبه بصور بين خلفيتها الفكرية التي يقصدها واضع الكتاب والعصر هوة كبيرة جدا، فمعظم الصور تقوم على تجسيد الماضي، وتسعى إلى احتضان أحلامه وقيمه، لكن "برسم منتقى من خارج الذاكرة الحديثة للطفل" (10).

لقد كشف عن خلفيات هذه الرسوم، ووضح أن الفكرة في الغالب تكون سابقة على الرسم، وقد أفرد لهذا الموضوع فصلا كاملا عنوانه بـ"رسوم الكتاب المدرسي: ملاحظات عامة" (11). وفي هذا الفصل، سيتضح أن كل ما قدمه من دعائم ديداكتيكية لتحليل الصورة في الفصول السابقة، نابع من الملاحظات التي عنت له وهو يتصفح كتباً مدرسية لمستويات تعليمية مختلفة، ويمكن اعتبارها، إلى جانب نقاشه مع الأساتذة، وضعيات انطلق منها لتأليف هذا الكتاب.

نستشعر أن المؤلف متذمر إلى حد ما من الهوة بين صور الكتاب المدرسي والواقع والقيم الانسانية النبيلة، متذمر من عدم استشارة واضعي الكتب المدرسية أصحاب الاختصاص، للاستعانة بخبراتهم وتجاربهم، التي من شأنها أن تطور درس الصورة بعيدا عن الجفاء. وهذا التذمر، يذكرنا بالشعور نفسه الذي أحس به "طودروف" الذي استغرب للكيفية التي يحتزل بها الأدب في المدارس الثانوية اختزالا عبثيا (12)، مما يجعله مملا ورتيبا، فجاء كتابه السالف الذكر منبها إلى مزلق تدریس الأدب، وما يترتب عن ذلك من نتائج وخيمة على الأدب بشكل عام. ونحن نرى أن كتاب "تجليات الصورة" من صنف هذه الكتب، التي تنبه إلى إشكالات التدريس وتقدم حلولاً لمعالجتها، وفي ذلك سعي حثيث من لدن الكاتب إلى إقامة نوع من التجسير بين السلكين: العالي والثانوي.

والمرات التي تعرض فيها الدكتور سعيد بنكراد لمواضيع ذات الصلة بالديداكتيك عديدة، من أهمها ما يتعلق بلغات التدريس تحديداً، وما نتج عنها من وضع معاجم للعامية(13)؛ هذه قضايا ذات منزع سياسي كان لبنكراد رأي فيها. لكن الكتاب، موضوع هذه الدراسة، نعتبره من أهم كتبه إثارة لقضايا ديداكتيكية شديدة الارتباط ببناء التعلّمات لدى المتعلمين.

نعم، هذا كتاب في الديداكتيك الخاص الذي "يهم بتدريس مادة من مواد التكوين من حيث الطرائق والوسائل والأساليب الخاصة بها" (14)، وليس كتاباً أكاديمياً بالمعنى الدقيق للكلمة؛ إنه كتاب مدرسي، قدم مقترحات عميقة وملاحظات سديدة فيما يخص تدريس الصورة. لذلك نرى أن قراءته من لدن المدرسين الذي شكّلوا منطلقه وهدفه، أمر ضروري وغاية في الأهمية، لأنه سيذلل العديد من الصعوبات التي تعترض سبيلهم فيما يتعلق بتدريس الصورة لمتعلمين يعيشون في عصر سطت فيه الصورة على كل جوانب الحياة.

1-بنكراد (سعيد): تجليات الصورة - سيميائيات الأنساق البصرية- المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء، ط، 1، 2019.

2-نذكر من هذه المؤلفات على سبيل المثال لا الحصر:

3-غوتبي(غي): الصورة(المكونات والتأويل): تر: بنكراد(سعيد)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط، 1، 2012.

- بنكراد(سعيد): بين اللفظ والصورة(تعددية الحقائق وفرجة الممكن)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط، 1، 2017.

- فيكتروف(دافيد): الإشهار والصورة(صورة الإشهار)، تر: بنكراد(سعيد): منشورات ضفاف، ودار الأمان، ومنشورات الاختلاف، ط، 1، 2015.

4-آيت أوشان(علي): اللسانيات والديداكتيك -نموذج النحو الوظيفي: من المعرفة العلمية إلى المعرفة المدرسية- دار الثقافة مؤسسة للنشر والتوزيع،

مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط، 1، 2005، ص: 34.

5-بنكراد(سعيد): تجليات الصورة، مرجع سابق، ص: 161.

6-نفسه، ص: 162.

7-بنكراد(سعيد): تجليات الصورة، ص: 232.

8-نفسه، ص: 249.

9-نفسه، ص: 239.

- 10-شكل هذا العنوان موضوع الفصل السابع من المؤلف المذكور.
11-طودوروف(تزيطان): الأدب في خطر، مرجع سابق، ص: 11.
12-يمكن الاطلاع على رأيه في هذا الموضوع من نقر رابط موقعه:
<http://www.saidbengrad.net>
13-آيت أوشان(علي): مرجع سابق، ص: 21.



صدر حديثا

